بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

إلى الحد الذى يناله التعليم الإبتدائى (أو التعليم فى المرحلة الأولى) من مكانة فى مجتمع ما ، يمكن الحكم على الإجراء والنظام التربوى ومتانتهما ومثاليتهما فى ذلك المجتمع .

أكثر من أى وقت مضى صار للتعليم الابتدائى إكبار وإجلال ، لا لأنه فى بعض البيئات يكون مرحلة تعليمية ليس بعدها تعليم نظامى ، وإنما تعليم الحياة والأيام والليالى . . . ولا لأنه يتناول الأطفال فى سن مبكرة وعمر لين مرن فحسب ، ولكن لأنه الركيزة التى ينبنى عليها التقدم والتنوع فى التعليم فيما يلى هذه المرحلة .

عندما يشكو رجال الجامعة والمعاهد العليا وأساتذتها ضعف مستوى الطلبة الذين يأتون إليهم ، لابد أن تأخذ الشكوى ونحلها محل تقدير كبير ، عندما نتكلم بصيغة الجمع لانقصد التعظيم ولكن نقصد الجموع الغفيرة من أفراد الشعب . نعنى المسئولين عن التعليم ، ونعنى المرضى الذين سوف يعالجهم طلبة كليات الطب اليوم بعد تخرجهم ، نعنى أولياء الأمور الذين سيعلم أبناءهم مدرسو المستقبل رواد كليات التربية اليوم ، نعنى آكلى لحوم الحيوانات والطيور التى سيشرف على صحتها شباب يتعلمون اليوم فى كليات الطب البيطرى .

ستهتم الغالبية العظمى — أو يجب أن تهتم — من أفراد الشعب بهذه الشكوى . ونقول معظم لأن فى المجتمع أفراداً يعيشون على هامشه ولايدرون

عنه وعما فيه إلا أقل من النذر اليسير ، والتعليم الابتدائى مسئول عن هذا الجهل الفادح .

الشكوى مرة ولاذعة ، والحل فى أيدى رجالات وزارة التعليم ، فيما نعلم . ذلك لأن خريجى المدارس الثانوية وما فى مستواها وهم الذين يلجون أبواب التعليم العالى من مسئولية وزارة التعليم ، وضعفهم الدراسى مرده إلى المدارس التى تخرجو فيها ، وهى تابعة بكل من فيها وما فيها إلى هذه الوزارة .

لكن المهيمنين على التعليم الثانوى وما فى مستواه قادرون بكل جدارة على إخراج أنفسهم من دائرة المسئولية كما يخرج الحاذق وغير الحاذق ، الشعرة من العجين . يقولون ومالنا نحن وقد جاءنا هؤلاء الطلبة من المدارس الإعدادية وما فى مستواها ضعفاء عليلى الكفاية العلمية يكادون لايفرقون بين حروف الجر وحروف العطف ، بين أسماء الموصول وأسماء الإشارة .

ونسأل رجال التعليم الإعدادى ، وقد إزداد عددهم بحكم إزدياد عدد مدارسهم ، لكنهم يسرعون بالدفاع عن موقفهم فى إيمان صادق يبعد عنهم ارتكاب الهفوات ، يقولون جاءنا التلاميذ من المدارس الابتدائية ومعظمهم تركت فيهم تلك المدارس مجرد القليل . طاف بهم أحياناً شىء إسمه المواد الاجتماعية ، وسمعوا عن حاجة إسمها العلوم ، ولا تسأل عن اللغة والحساب وغيرهما ، فهى وإن كانت موجودة بتلك المدارس إلا أنها أجسام بلا أرواح ، تسمع ولا تفهم ، تقرأ ولا تستوعبها عقولهم . . . هى حلال محرم .

تشير الأصابع إلى هذه المدارس الابتدائية التى خرجت — مع الإنصاف — أنصاف متعلمين ، وذهب أطفالها ليكونوا تلاميذ المدارس الاعدادية التى

يقول أصحابها . . . وماذا تعمل الماشطة فى الوجه العكر ؟ وليس من حقنا هنا أن نكيل الاتهامات ثم نستمع إلى الدفاع ، وكر وفر إلى مالا نهاية وإلى لانتيجة . ليس هذا طريق حل الأمور البائسة الكليلة . . . ليس هذا حل مشاكل تعليم يكاد يكون نافراً من الموقف العجيب الذى وقفه المجتمع منه ومن من يعملون فيه .

لكن ثمة إشارات من بعيد أن ضوءاً أخضر أضيء ونوراً ساطعاً سلط على هذا التعليم ذى التأثير الهائل على مستقبل دولة تحاول أن تساير التقدم وتلاحقه . لهـــذا ، ولغيره من الأسباب كان تخير هذا الكتاب للترجمة فى شيء كبير من التصرف . ولعل المهتمين بأمور التعليم الابتدائى ، بل وبغيره من مراحل التعليم يجدون فى محتوى هذا الكتاب الكثير مما يدفعهم إل التفكير ، فهو كتاب فى فلسفة التعليم الابتدائى ملآن بالاتجاهات والآراء ، وكثير منها يتحدى مواقف عقلية للمربين ويحثهم على إمعان التفكير والتأمل .

الكتاب فلسفى فى غرضه وجدله وهو بهذا لاغنى عنه لمدرس المدرسة الابتدائية وناظرها ومفتشها والمسئولين عنها ، عسى أن يرسى بعض دعائم فلسفة لهذا التعليم ، وعسى أن يكون هادياً للتنسيق بين أهداف التعليم وما تهدف إليه المدرسة الابتدائية ، وواقعياً فى عمليتها البناءة ودورها الحيوى فى هذا المجتمع المتطور .

وقد يكون من المفيد أن نكرس صفحتين أو أكثر لنظرة طائر خاطفة عن التعريف بالنظرة الحديثة عن مكانة الطفل أو المتعلم فى العملية التربوية ، حيث أن مؤلف الكتاب يميل إلى هذه النظرة الحديثة المعتبرة أن الطفل أو المتعلم هو مركز العملية التربوية مهاجماً إتخاذ المواد الدراسية مركزاً لها .

إن النظرة الحديثة وعرضها وشرحها يتطلب كتاباً قائماً بذاته ، ولذلك

فإن العرض السريع لها لايكفيها ونرجو ألا يغمض حقها . وفى بعض مدارسنا ملامح منها ، وفى كثير من مدارسنا لاأثر لها . روى عن أفلاطون أنه قال « لتأخذ تربية أطفالكم شكل اللعب » وعلى مر العصور منذ وقت أفلاطون تلمس بعض المربين جرأة نادرة فاقتطعوا من (الجانب العقلى) فى التربية جزءاً طفيفاً كرسوه ليكون مرتعاً يلعب فيه الأطفال ، حتى جاء روسو وكانت جرأته هادرة فى حجب التعليم النظامى عن الأطفال حتى يصلوا إلى سن الثانية عشرة تقريباً ، وقد شبه ديوى ما فعله روسو بأنها ثورة كوبرنيقية . . . قال ديوى[1] « يمكن أن نلخص التربية القومية (التقليدية) فى القول بأن مركز الثقل فيها كان خارج الطفل ، كان المركز فى المدرس وفى الكتب المدرسية أو فى أى مكان آخر يحلو لك إلا فى غرائز وأنشطة الطفل نفسه ... إن التفكير فى التربية وشيك الوقوع الآن ينقل مركز الثقل، سيصبح الطفل الشمس التى تنظم وتدور حولها الأنشطة التربوية » .

وليست هذه الفكرة من إبتكار ديوى كلية ، فمنذ حوالى قرنين أو أكثر وهناك شد وجذب ، وتلميح خاف أحياناً صريح أحياناً أخرى عن مكانة الطفل فى العملية التعليمية . ولم يكن الطريق ممهداً مفروشاً بالورود لاستقبال هذه الفكرة (الجديدة) عن الطفل ومكانته ، بل إن أشواك النقد ومطارق الهدم لم تأل جهداً فى سبيل تحطيم هذه الفكرة ، أشواك بثها رجال دين ومطارق حملها مربون وسياسيون .

إن الأفكار فى قوتها أشد من أمضى أسلحة الحرب الفتاكة ، وإن فكرة واحدة ما قد تغير خط سير التاريخ وتؤرق نوم الطاغية وتسلب الراحة من جماعة استمرأت هدوء وأمن القديم ، فاستكانت

---

(1) J., Dewey , School and Society , Phoenix Books. Univ. of Chicago Press . 1959, P. 34 .

فى أحضانه رافضة كل تغيير أو تعديل متناسية أن عجلة الزمن لايكفيها فقط أن تدور بل عليها أن تتحرك متقدمة .

وعندما نادى مربون فى القرن الماضى باعادة النظر فى النظر إلى الطفل وبالتالى إلى المدرسة (الابتدائية) وما يجرى فيها ، وقدمت مناهج تتناسب مع النظرة الجديدة للمتعلمين صارت حرب شعواء عليهم واتهمت هذه التربية الجديدة بأنها أفسدت الأطفال والتعليم والمجتمع بما حوته من بدع أبعدت المتعلمين عن التعليم ، بدع مثل الموسيقى والفنون وأنشطة تركت للأطفال حرية الحركة والتعبير ، فانهارت اللغة وخرج الأطفال جهلاء لأن التعليم اتصف باليسر والسهولة والليونة .

هل هذا واقع فما يحدث اليوم عندنا هنا فى مدارسنا الابتدائية ، فى الخمس الأخير من القرن العشرين ؟ وفى الفترة السابقة كنا نتكلم عن الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ؟ . . كان الرد منذ قرن مضى أن عودوا إلى (الجدية) فى التعليم واتركوا هذه البدع وليجلس الأطفال على الكراسى أمام المعلم يرون ولا يسمعون ، يجد الطير على أكتافهم ملاذاً طيباً لها فهم لايتحركون ، عيونهم إلى المعلم شاخصة ، وآذانهم إليه منصته ، يؤمنون على كل ما يقول ويحفظون على ظهر القلب ما جاء فى كتبهم المدرسية ، هؤلاء هم أطفالنا الشطار كما يجب أن يكونوا .

ولكن هل التربية والتعاسة صنوان ، هل يتطلب الأمر أن يكشر المدرس وجهه ويقطب جبينه حتى يكون فى العملية التربوية وقار واحترام من الصغار للكبار ؟ وهل من الضرورى أن يجلس الأطفال وكأن على رءوسهم الطير حتى نقول إن هذا فصل منتظم وأن معلمه رجل يعرف واجبه ، ثم هل العملية التربوية حشو الأذهان بكل ماهب ودب من معلومات لاتعنى للطفل إلا النذر اليسير جداً ولكنه يحفظها تماماً وبكل دقة حتى يأتى يوم يجلس فيه يجيب على أسئلة . . . ثم ينجح ؟ نعم إنه ينجح لأنه أطاع

وحفظ وصمت وجلس ساكناً . هذا (المتعلم) يصلح فى مجتمع غالبية أفراده يرُون ولا يسمعون ، يتحركون كالدمى ، لايفكرون لأنفسهم ، وغدهم فى يد غيرهم وحاضرهم إمتداد رتيبى لماضيهم . ليس هكذا يكون الفرد الحر فى مجتمع حر:

قال هـ . ج . ويلز : إن المدنية سباق بين التربية والدمار . . . والتربية علم لايجب أن يخضع للعفويات ، ولا يجب أن يكون ملجأ من لاعمل له . إن الدولة التى تتهاون فى تنمية ورعاية عقول أجيالها الصاعدة هى دولة تنتحر عقلياً وثقافياً وخلقياً ووجدانياً ، وفوق كل هذا تتخلف علمياً فى عالم أصبح للعلم والتكنولوجيا فيه مكان الصدارة .

ألا يدعونا هذا وغيره إلى وقفة طويلة متأملة مفكرة فاحصة ناقدة بعين غير هادمة لما يدور فى المدارس الابتدائية اليوم ؟ . . . وهل حقاً هناك تعليم وتربية بعد أن انكمش اليوم المدرسى انكماشاً مخجلا ضاعت فى ثناياه معالم العملية التربوية أوكادت . . .

ليس كل قديم مرفوض ، إن الرفض الكامل إجراء طائش ، إذ كان فى الكتاب والمدرسة الأولية ، وما زال فى بعض منها ، نواحى قوة لايجب أن تضيع فى هوجة الرفض الكامل العنيد . وفى البشر إمكانات يمكن أن تستغل فيدرب غير القادرين ليقدروا ، وليتعلموا من جديد ليعلموا بفاعلية وإثراء . وقد يأتى اليوم الذى نرى فيه المدرسة الابتدائية والثانوية على قدم المساواة بمن فيها وما فيها .

ونتساءل الآن عن أهم ملامح هذه النظرة الجديدة عن مركز الطفل فى العملية التربوية :

يجب أن يكون لما يتعلمه الطفل معنى عنده ، فإن النشاط التعليمى يجب أن يرمى فى أساسه إلى أن يفهم الطفل مايتعلمه ، وإلا يصبح ما يطرق

أذنيه كلاماً لامعنى له . . . مجرد مجموعة أفكارغير مترابطه : : : أومهارة ليس لها تطبيق أو فعالية إلا بين جدران الفصل الأربعة .

يجب إذن أن (يمتلك) الطفل مايعرفه : ومعنى يمتلك هنا أنه يستخدمه استخداماً مثمراً يكون تحت تصرفه فى سلوكه ، يجب أن يكون رهن إشارته . إن معلومة أومهارة بهذا المعنى تصبح مفيدة ، ولاتكون مجرد حلية مزيفة تنفع يوم الامتحان ، ثم تلقى وتلغى ولا قيمة لها .

هل نريد من عملية التربية مظاهر شكلية فارغة تصلح لاعطاء بيانات أو ملء استمارات وكشوف لهيئات دولية حتى تظهر الدولة ونسبة الملزمين فى المدارس ١٠٠ / ؟ أم نريد من التربية فوائد وقيمة تنفع المتعلم وبالتالى تنفع مجتمعه ، فهو جزء من هذا المجتمع ويجب أن يتعامل ويتفاعل معه ؟ .

ما نريده من الطفل الاستخدام الماهر لما يكونه ويكتسبه من مدركات ومعلومات ومبادىء وقوانين ، وكذلك ما يكتسبه من مهارات حركية وسلوكية .

يتطلب كل هذا أن يمارس الطفل هذه المهارات ، أن يمارس مهارة من مدرك جديد تعلمه ، من فكرة ما ، ومن تطبيق مبدأ أو قانون . . تعنى الممارسة هنا أنه يمتلك فعلا تلك المهارة ، وهذا أمر لايتأتى لمجرد أن نقول للطفل ماذا يعمل . لكى (يمتلك) الطفل لابد له أن يفهم المدرك أو المعنى ويقتنع به ، ويتفاعل معه ويمارسه . . . هنا نقول أن المدرك أو المعنى (إمتزج) بالطفل ، وأن الطفل امتلكه .

معنى أن يمتلك الطفل ما يتعلمه أنه يصبح قادراً على استخدامه فى مواقف جديدة مستقبلة . تصبح للمعرفة هنا وظيفة أسمى من مجرد الإلمام بمعلومة

ما أو تعلم مهارة ما تصلح للعمل داخل الفصل وأحياناً خارجه مما يرضى المتطلبات المدرسية فحسب . إن ما يتعلمه الطفل فى المدرسة لم يقصد به — فى المفهوم الحديث للعملية التربوية — ضرورة تؤهل الفرد للنجاح فى امتحان ما ، أو حلية تزينه بهذه الشهادة التى يحملها والمعترف بها رسمياً والتى هى رخصة للتعيين فى وظيفة يعلو قدرها بقدر ما يعلو قدر الشهادة ، وإنما قصد به أن يكون زاداً وقوة تتيح لحاملها معالجة مشكلات الحياة بفعالية أكثر .

إن المعرفة قوة . . . ويالها من قوة .

وحتى تصير للمعرفة قوة ، وحتى يصير للتعليم هذه الفاعلية لابد أن يكون ذا معنى عند المتعلم ، أى يرتبط بخبرته . ويعنى الارتباط بالخبرة أنه يؤسس على ما لدى المتعلمين من خبرات سابقة ، وأن يمنحهم (سعادة) فى ثنايا عملية إكتسابهم الخبرات الراهنة الحاضرة ، وأن يكون فى نفس الوقت مثرياً لمواقف خبرية مستقبلة . وتبنى كل هذه العملية بماضيها وحاضرها ومستقبلها على استخدام مناحى القوة عند المتعلم فتعززها وتزيدها قوة ، وأن تتلمس نواحى الضعف فتعالجها بقدر ما تستطيعه إمكاناته العقلية والجسمية . الفرد فى نموه الجسمى قد يحتاج إلى أنواع من الفيتامينات أو المعادن لتسد حاجة أو نقصاً يعانيه ، ثم إنه فى نفس الوقت يقوى ما عنده من إمكانات بإثرائها بالغذاء والرياضة والترويح البرىء . وليس معنى هذا أن كل طفل سيحتاج إلى منهج قُص على حجمه وخبراته ، فليس معقولاً أن يدرس المدرس — مهما كان عبقريا — خمسين منهجاً مختلفاً للخمسين الجالسين أمامه فى الفصل . ولكن هؤلاء الأطفال يأتون من بيئات فيها التشابه كبير ، وخبراتهم الماضية متقاربة ، ولاأقول متماثلة ، فى خطوطها العامة وإتجاهاتها الأساسية ، وهى بذلك قد تصلح نقطاً للبداية . وفيما بعد والاحتمال كبير جداً أن هذا يتم بعد الانتهاء من مرحلة التعليم الابتدائى ، تنفتح الإمكانات والقدرات الخاصة ، وهذا ليس موضوعنا فى هذا الكتاب .

ويلوح أن هذا الاستيعاب الداخلى لما يتعلمه الفرد بحيث يؤثر فى سلوكه وتصرفاته أياً كانت عقلية أو جسمية أو خلقية أو وجدانية . . . مهما كان لونها وطبيعتها ، أقول إن هذا الاستيعاب المؤثر هو غاية ماتتمناه العملية التربوية . . . فى أى مجتمع يروم التقدم ويسعى إليه . وما أحوج الشعوب النامية إلى فهم هذا المدرك عن التربية حتى تعيد النظر فيما يدور داخل مدارسها وتخضعه لغربلة ناقدة نافذة ، ومبتعدة عن اللغو الفارغ ومتضمنة المفيد المثمر .

إن فهم وظيفة التربية بهذه الصورة يتطلب نوعية خاصة من مدرسى المدارس الابتدائية . إن كلا منهم يعلم ويوجه ويساعد وينظم ويقيم . . . إلخ . هذه هى الوظيفه الصحيحة للمعلم ، وقد ولى — أو نرجو أن يكون قد ولى — ذلك الوقت الذى كان المعلم يدخل فيه الفصل ويلقى كلمات حفظها ، أو يلقى ما استطاع تذكره ثم ينسحب بعد دق الجرس . معلم تحكم جرس المدرسة فيه . فهو يدخله حجرة الدراسة وهو يخرجه منها ، مدرس تحكم الكتاب المدرسى والمنهج الجامد فى عقله وتفكيره وفيم يقول وفيم ينتظر سماعه أوقراءته من إجابات التلاميذ — مدرس كانت العلاقة الوحيدة التى تربطه بالتلاميذ موضوعات المنهج المقررة وكأنما هى منزلة لايأتيها الباطل من أى جانب . مدرس كان هو الفاعل المتكلم السائل الآمر الناهى السيد . . . أما التلاميذ فعليهم الطاعة والامتثال والتقبل وتقديس ما يقول .

يرى البعض أن الأطفال تعلموا فى الماضى بطرق لايرتضيها بعض مفكرى التربية اليوم ، وأنهم نجحوا وتفوقوا ؛ بل منهم بعض رجال التربية الذين يرتضون تلك الطرق . وقد نسى هؤلاء البعض أن كل مناشط الحياة يصيبها التغير والتقدم ، وأن الطفل الذى جلس منذ ثلاثين سنة يختلف عن طفل اليوم ، لافى شكله وتركيبه الفسيولوجى ، ولكن فى المؤثرات البيئية التى تشكل خبرته وتؤثر عليها وعليه تأثيراً لايمكن مطلقاً التقليل من شأنه .

بفكر مفتوح نرجو أن يقرأ هذا الكتاب على مهل ، وعسى أن يجد فيه المهتمون بالتعليم الابتدائى ما يعينهم فى تحقيق رسالتهم النبيلة .

وقد راعى مترجم الكتاب أقصى المرونة التى استطاعها حتى يخضع صعوبة الكتاب فى أفكاره وعرضها ولغتها إلى أسلوب باق على الأفكار ولكنه متحرر فى عرضها ولغتها بالعربية .

فهذه ليست ترجمة جامدة ولكنها متحررة حاول فيها المترجم تبسيطاً فى علمية وتيسيراً فى إطار فلسفى يعرض آراء المؤلف بأمانة وفى نفس الوقت تفيد القارىء العربى . وقد اضطر المترجم فى بعض المواقف إلى حذف فقرات رأى أنها قد لاتهم القارىء العربى أو المقيم فى مجتمع عربى .

كما عمل المترجم فى مواقف أخرى إلى شرح من عنده لبعض الأفكار الفلسفية التى عرضها المؤلف حتى يتيسر للقارىء متابعة وفهم المقصود .

ويرجو المترجم أن يكون قد وفق فى هذا العمل .

والله ولى التوفيق .

مصر الجديدة — سعد مرسى أحمد

مايو سنة ١٩٧٩